مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies)
جامعة وهران02/ المجلد 11 ع 02 ، 31/ 03/ 2022
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

الاستشراق الفرنسي والثقافة الشعبية الجزائرية

French Orientalism and Algerian popular culture

سعاد حميدة souad hamida * hamidasouad@yahoo.fr	ثقافة شعبية (علم الاجتماع)	المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف_ ميلة/ الجزائر

DOI : 10.46315/ 1714-011-002-016

الإرسال: 2021/2/8 القبول: 2021/04/13 النشر: 2022/03/31

ملخص: عرف الاستشراق بأنه يعنى بدراسة النصوص التراثية، التي تزخر بها المكتبات العربية وهي تشكل المرآة التي تعكس الأنماط المعيشية للشعوب، وما مرت به من أحداث وما أعطته من أفكار، سواء على الصعيد الأدبي أو السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي والديني.

والنصوص التراثية هي ركيزة الأمة ووسيلة استمرارها وخلود حضارتها، لأنها تعدّ وثيقة الهوية والانتماء، وقد حرص المستشرقون الفرنسيون على دراسة كل ما يتعلق بالجزائر منذ احتلالها من لغة عربية ولهجات وتاريخ، وثورات ورحلات وتراجم وعقيدة...الخ، ولم يكتفوا بذلك وإنما اتجهوا للتراث الشعبي وعايشوا الناس عن قرب للتعرف على نمط معيشتهم وطريقة تفكيرهم فاهتموا بالتراث الشعبي أو ما يسمى بالثقافة الشعبية بشقيها المادي واللامادي، فتولى العديد منهم مهمة العمل الميداني وجمع مختلف أشكال الأدب الشعبي، لأنها باب لفهم عقلية المجتمع الجزائري، وفي هذا المقال سنحاول عرض جهود بعض المستشرقين الفرنسيين في معالجة وبعث الثقافة الشعبية الجزائرية.

كلمات مفتاحية: الاستشراق؛ التراث الشعبي؛ الثقافة الشعبية؛ الأدب الشعبي.

Abstract: (English)

Orientalism was defined as being concerned with the study of heritage texts that are rich in Arab libraries. They constitute a mirror that reflects the peoples' living patterns, the events they went through and the ideas that they gave, whether on the literary, political, social, cultural or religious levels.

The heritage texts are the pillar of the nation, the means of its continuation and the eternity of its civilization, because it is considered a document of identity and belonging, and the French orientalists have been keen to study everything related to Algeria since its occupation of the Arabic language, dialects, history, revolutions, travels, translations, belief ... etc., and they were not satisfied with that, but rather they turned to the popular heritage. They lived closely with people to get to know their lifestyle and way of thinking, so they were interested in folklore, or the so-called popular culture, in both its tangible and intangible parts, so many of them took on the task of field work and collecting various forms of folk literature, because it is a door to understanding the mentality of Algerian society, and in this intervention we will try to present the efforts of some French Orientalists In treating and resurrecting the Algerian popular culture.

Keywords: Orientalism; Folklore; Popular culture; Popular literature.

* - الباحث المُرسل: hamidasouad@yahoo.fr

*- مقدمة:

شهد العالم الإسلامي في فترات تاريخية مرت عليه وجود ظاهرة الاستشراق والمستشرقين الذين أخذوا يفدون من أوربا، بحثا عن الآثار العلمية والكنوز التي تزخر بها خزائن الكتب في البقاع التي كانت تعدّ منبعا للعلوم والمعارف والآداب، ثم يحملون ما حصلوا من المخطوطات ويعودون لبلدانهم لدراستها وتحقيقها ونشرها، وعدّ " الاستشراق ظاهرة ثقافية ومعرفية تغذيها عواطف اكتشاف ذلك المجهول الغامض، المحاط بالرموز التي لا تقرأ أحرفها بسهولة ...والشرق في نظر الثقافة الغربية كون جديد وقارة غاضبة متحدية، وضفة شرقية منتصبة بكبرياء التاريخ، شامخة باعتزاز، تقف وحيدة وكأنها التاريخ كله، تقاوم كل تحد ولا تستسلم" (النهان، م، 2012، 788)، حيث أسال لعاب الغرب بكل ما يملكه من مقومات معرفية وطبيعية وبشرية.

وعدّ الاستشراق الفرنسي من أكثر الاتجاهات الاستشراقية اهتماما بالعالم الإسلامي وحضارته، ويكمن وراء ذلك أسباب تاريخية وخصوصيته التي يتميز بها، " لا تعود لطبيعة بشرية عند الفرنسيين ينفردون بها عن غيرهم، ولا تعود لموضوع استشراقي اختصوا به دون سواهم، ولا لعصر سادوا فيه غيرهم، لكن ذلك يعود لتاريخ وظروف خاصة مرّوا بها دون غيرهم، وأثرت في تكوين شخصية فرنسا التاريخية المحتكّة بالإسلام دوما، وما اكتسبته من تجاربها معه، وما تميزت به في مراحل تكوينها تاريخيا وجغرافيا ودينيا وعسكريا" (بن إبراهيم، ط، 2004، 52)، ففرنسا تعد من أكثر الدول الغربية احتكاكا بدول الشرق نتيجة الحروب الصليبية والاستعمارية، إضافة إلى الغزو الثقافي الذي انتهجته وسيلة لتحقيق مآربها ومصالحها، وهكذا انعكس الواقع التاريخي لفرنسا في حركتها الاستشراقية.

وتعتبر الجزائر أكثر الدول الإسلامية والعربية ارتباطا بفرنسا، فاسمها مسجل في كل الواجهات التاريخية ضد الطامعين، وصولا إلى زمن الاحتلال الفرنسي، لذا فقد أخذت لنفسها مساحة كبيرة في كتابة المستشرقين وخصّوها بالدراسات، وحظي تراثها باهتمامهم على جميع الأصعدة.

ولأن التراث الشعبي هو مرآة تنعكس فيها اهتمامات الشعوب وآمالها، ووعاء تجتمع فيه إبداعاتها، وهو بحق سر وجوود الأمم فبه تحافظ على بقائها وعلى مقوماتها وشخصيتها، والأمة الجزائرية لم تنأ عن بقية شعوب العالم فقد جادت قرائح أفرادها بتراث شعبي متنوع ونسجت أناملهم ما يشهد على عطائهم، وكان بالنسبة للاستشراق الفرنسي وسيلة هامة للكشف عن عقلية المجتمع وطبيعة تفكيره، وهو ما عكفت فرنسا على الاشتغال عليه عبر باحثيها.

1_ في مفهوم الاستشراق :

واجه مصطلح الاستشراق مثل العديد من المصطلحات الأخرى، خلافات عديدة في تحديد مفهومه بسبب الخلفيات الفكرية التي يبني عليها الدارسون تصوراتهم، وهو في لسان العرب يأتي من الشرق: « شرقت الشمس شروقا طلعت، اسم الموضع المشرق"(ابن منظور، ج، د ت، 653)، أما في المعجم الوسيط فكذلك يأتي من" المَشْرِقُ: جهة شروق الشمس_ والبلاد الإسلامية في شرقي الجزيرة العربية. و(ج) مشارق" (العربية، م، د ت، 480)، فالشروق هو طلوع الشمس، والمشرقي هو من يقيم جهة الشروق، أما استشرق فالألف والسين والتاء هي حروف الطلب والاستشراق هو طلب الشرق، وبالتالي فالتوجه للشرق ودراسة علومه وتراثه هو استشراق.

والقاموس الفرنسي يعرف المصطلح بقوله" يطلق مصطلح مستشرق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق في آدابه وحضارته وعاداته وتراثه، وعلى كل باحث غربي متخصص في دراسة اللغات الشرقية كالفارسية والتركية والهندية والعربية، أو على أحد فروع المعرفة المتصلة بالشرق من قريب أو بعيد" (G , Larousse. 1003_1004).

أما اصطلاحا فـ" الاستشراق أو الدراسات الاستشراقية مصطلح أو مفهوم عام، يطلق عادة على اتجاه فكري يعنى بدراسة الحياة الحضارية للأمم الشرقية بصفة عامة ودراسة حضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة" (وزان، ع، د ت، 15).

كما يعرف الاستشراق كذلك بأنه" المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق، بإصدار تقريرات حوله، وبوصفه وتدريسه والاستقرار فيه وحكمه، وهو بإيجاز أسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبنائه وامتلاك السيادة عليه" (الزيادي، م، 1998، 16)، حيث تبدو من هذا التعريف أن دراسات المستشرقين قامت لهدف نفعي محدد.

فيما نجد تعريف آخر يعتبر المستشرقين" هم أولئك الأساتذة والباحثون الأكاديميون الذين تخصصوا في دراسة اللغة العربية، والحضارة العربية، وبقضايا العالم العربي وبالدين الإسلامي" (الزيادي، م، 1998، 16))، والتمحيص في مجموع هذه التعاريف يقودنا إلى الاستنتاج بأن بالاستشراق يحمل دلالة على وجود علاقة ما بين الشرق والغرب، وغالبية التعاريف لا تخرج عن أن الحركة الاستشراقية تكونت غالبا لأجل التسلط وإحكام السيطرة.

2_ نشأة الفكر الاستشراقي:

هناك رأي يقول أن بداية الاستشراق نشأ كظاهرة ثقافية في أعقاب ذلك الصدام العنيف بين الحضارتين المختلفتين، الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية المسيحية، ويبتدئ تاريخه منذ أن

بدأت الدول الغربية تهتم بالإسلام كحضارة وثقافة، بعد أن حقق انتصارا على المسيحية، فكانت هناك أطوار:

_**الطور الأول**: " يمثل الاتجاه العام لتلاقي الشرق والغرب في صعيد التعاون الثقافي، وتبرز في هذا الطور خصوصية الاقتباس والاستفادة من الحضارة الإسلامية، وبالرغم من أن الاستشراق فيما بعد أخذ أبعادا جديدة واتجه نحو أهداف مغايرة.

_**الطور الثاني**: " ويبتدئ هذا الطور منذ قيام الحروب الصليبية، التي أوجدت فجوة نفسية بين الغرب والشرق وأوقفت ذلك التلاقي العفوي بين الديانات في سبيل نمو المعرفة الإنسانية، فالغرب المسيحي اندفع بقوة وحماسة لتحدي العالم الإسلامي، واستطاع أن يقتحم حصونه.

_ **الطور الثالث**:" يبتدئ هذا الطور منذ أن بدأ تشكيل البدايات الأولى للمدرسة الاستشراقية الحديثة في القرن السادس عشر والقرن السابع عشر، حيث أخذ الغرب يضاعف من اهتمامه الثقافة العربية والإسلامية، ويطبع الكتب العربية، وينشئ مدارس علومها ويقيم كراسي في جامعات الغرب للاهتمام بالمصادر العربية تحقيقا لها وخدمة لها، وكشفا عن كنوز المعرفة في تراثنا " (ينظر: النهان، م، 2012، 16_17_18)، فالاستشراق ظاهرة قديمة وتطور حديثا فهو يعد" من الظواهر التي صاحبت المد الإسلامي وازدهار الفكر الإسلامي، والعلوم الاسلامية واهتمت بالعلوم الاسلامية دراسة وتحليلا، ثم انصرفت إلى تراث المسلمين المخطوط منه والمطبوع، تحققه وتدرسه في فترة من الفترات التي انشغل فيها المسلمون عن هذا التراث مستغلة الفراغ لتملأه بما يستجيب وطموحات منتسبيها الفكرية، ويخدم نزعتهم إلى السيطرة والتوسع على حساب من اعتبروهم بلا حضارة وبلا مستقبل" (علواني، ص، 2014، 64)، أما عن المصطلح فلم " يظهر مصطلح مستشرق في أوربا إلا في نهاية القرن الثامن عشر، فقد ظهر بإنكلترا أولا سنة 1789، ثم بفرنسا سنة 1799، وأدرج بقاموس الأكاديمية الفرنسية" (فارح، م، 2012، 83).

3_ مو اقف المفكرين العرب من الاستشراق:

مواقف العلماء المسلمين تقريبا تنحصر في ثلاثة مواقف ترد كالآتي :

" **القبول المطلق**: هذا التوجه نحو قبول إسهامات المستشرقين يعدّ أول المواقف الثلاثة بروزا، إذ أن بداية النهضة في مصر وسوريا، قد اتكأت على مجموعة من المفكرين والأدباء الذين تلقوا علومهم عن الغرب إما بالابتعاث أو بالمتابعة" فقد انبهر هؤلاء وتأثروا مباشرة بآراء المستشرقين وتفسيراتهم الجديدة للإسلام.

الموقف الرافض: أبدى مجموعة من المفكرين رفضهم المطلق لحركة الاستشراق حيث ينظر هذا الفريق إلى الاستشراق على أنه علم أوروبي، وهو صورة لما توصلت إليه أوروبا في معرفة الشرق، ... هناك دوافع وأهدافا غير علمية ساقت المستشرقين إلى هذا المجال خدمة لأغراض استعمارية وتنصيرية ودينية عامة وتجارية واقتصادية، وعليه فإن الثقة منزوعة من إسهامات هؤلاء.

موقف المواجهة: هذا الاتجاه كان موقفه ذلك القائم على الدراسة والبحث والغوص في اسهامات المستشرقين، والتعرف على مواطن الضعف في هذه الاسهامات، مع معرفة تامة بمواطن القوة والضعف في الاسلام، والانطلاق بأن كل ما جاء به الإسلام فهو حق لا تزعزعه الأهواء ولا الآراء الشاذة، التي لم يخل منها المجتمع المسلم، سواء جاءت هذه الآراء من أبناء المسلمين أو جاءت من أولئك الخارجيين"(ينظر: النملة، إ، 1993، 18_21_22_29)، وهكذا اختلفت وجهات النظر حول الحركة الاستشراقية ليومنا هذا، فهناك فئات صنفتها في دائرة الدراسات الذاتية وهناك فئات جعلتها في دائرة الدراسات الموضوعية

4_ مراحل الاستشراق الفرنسي في الجزائر:

مر الاستشراق الفرنسي في الجزائر بثلاث مراحل هي:

**المرحلة الأولى: (1830م 1879م)**: تزعمها عسكريون فرنسيون وتميزت بالترجمة، وقد سعوا إحلال لفرنسية مكان العربية في السلطة والإدارة، واشتغلوا في لجان علمية ومجلات وجمعيات، وأنشأوا كراسي اللغة العربية، انتهت بإنشاء مدرسة الآداب والمدارس الشرعية الثلاث سنة 1879م، وهي العاصمة، قسنطينة ووهران.

**المرحلة الثانية(1979م 1930م)**: تميزت بتوسيع نشاط المستشرقين الفرنسيين، سواء بإعادة تنظيم المدارس أو بإنشاء مدارس جديدة لتعلم اللغة العربية، أو بعقد مؤتمرات الاستشراق، فقد تم انشاء مدرسة الآداب سنة1880م تراسها هوداس بمساعدة بلقاسم بن سديرة، وتولى رونيه باسي تدريس الأدب العربي فيها، ليتولى رئاستها فيما بعد ويخلفه فانيان ثم حولت فيما بعد سنة 1909م إلى جامعة، وأصبح باسي عميدا لها، ثم أنشأ بمساعدة بن سديرة وبوليفة كرسي اللغة البربرية وتولى تدريسها، وأهتمت بلهجات بني مزاب والقبائل والأوراس، ودرست تاريخ الزوايا والأولياء الصالحين.

**المرحلة الثالثة(1930م 1962م)**: شهد فيها الاستشراق توسعا كبيرا، وذلك بإنشاء معاهد متخصصة وتحويل المدارس الشرعية الثلاث إلى ثانويات مزدوجة، ومنها انشاء معهد البحوث الصحراوية في مختلف التخصصات"(ينظر: بنيرد، ح، 2020، 2_4)

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

5_ تعريف الثقافة الشعبية:

هي من المصطلحات التي استعملت في الدراسات العربية، كبديل عن مصطلح الفولكلور من تعريفاتها أنها تعني" كل ما يرث المجتمع من أجياله السابقة، باستثناء الصفات الحياتية الطبيعية، من نظم وقيم ومعتقدات اجتماعية وفكرية ودينية وأنماط سلوكية ومهارات فنية يسيطر بها على بيئته ويكيّف بها نفسه لها، ويستطيع بواسطتها إشباع حاجياته الحياتية والاجتماعية، وغيرها من جيل إلى الجيل الذي يليه" (شاكر، م، 1991، 230)، ما يعني أن الثقافة الشعبية هي الفولكلور أو التراث الشعبي في شقيه المادي واللامادي، ويمكن أن حدد أشكال الثقافة الشعبية أو التراث الشعبي في هذه العناصر:

_المعتقدات والمعارف الشعبية.

_العادات والتقاليد الشعبية.

_الأدب الشعبي.

_الثقافة المادية والفنون الشعبية.

ويتفرع عن الثقافة الشعبية الأدب الشعبي الذي يعني الجانب المنطوق من هذا التراث الشعبي، حيث تدخل تحت جناحه الأشعار الشعبية والأغاني، والحكايات والأساطير والألغاز والأمثال وهو ما سنركز عليه ونكشف عن حظه من البحث الاستشراقي الفرنسي.

6_ دور المستشرقين الفرنسيين في بعث الثقافة الشعبية الجزائرية:

أ_ اللهجات الشعبية:

أيقن المستشرقون دور دراسة اللهجات في الكشف عن عقلية المجتمع الجزائري في كامل ربوع الوطن، فانطلقت الدراسات الاستشراقية للهجات المحلية في وقت مبكر، "حددها روني باسيه بسنة 1890م، ونتيجة لكل ذلك أخذ كل مستشرق يدرس لهجة أو أكثر في المدن والأرياف، فقد كانوا يحتكون بالأهالي أو عن طريق تلامذتهم في هذه المناطق" (بنيرد، ح، 2020، 5)، فقد كان البحث في اللهجات وتدريسها وسيلة تختصر على السياسة الفرنسية أشواطا كثيرة في معرفة ودراسة عقلية المجتمع الجزائري.

المستشرقون الفرنسيون في الجزائر وعبر منهج استشراقي متكامل وممنهج قاموا بوضع" خرائط اثنية وقبلية للمجتمع الجزائري، ووضعوا خريطة شاملة للقبائل الجزائرية سنة 1844م، ومن ضمن هذه الدراسات نجد العادات والتقاليد واللهجات، ونعتقد أن اللهجات شكلت معيارا مهما في تصنيف الخرائط الاثنوغرافية، ونشر في هذا المجال كبار المستشرقين الفرنسيين، أمثال وليام

مارسيه(ت1956م)، وله باع في البحوث المتعلقة باللهجات المختلفة للمجتمع الجزائري مثل اللهجة المستعملة في تلمسان، نشر في باريس سنة 1902م، ودراسة لهجات أولاد براهيم بسعيدة نشر في باريس سنة1902م، وهنري باسيه(Henri Basset) له أيضا بحوث منها le berbère et sa langue (البربري ولغته)، بالإضافة إلى أعمال إدموند دوتي وقائمتهم طويلة" (بنيرد، ح، 2020، 1_2)، وقد كان لمثل هذه البحوث دور مهم في كشف الغطاء عن واقع لساني متنوع، بغض النظر عن الأهداف الاستعمارية المعروفة.

كما سهر العديد من المسترقين على بقية اللهجات الجزائرية فـ" اعتنى ديستان بلهجة بني سنوس أثناء توليه إدارة تلمسان بعض الوقت، وأثناء ذلك أيضا تعرف على لهجات معسكر وندرومة وتلمسان وسعيدة واللهجات البربرية المحيطة بالمنطقة مثل لهجة بني سنوس" (سعد الله، أ، 1998، 35)، فالجزائر شاسعة ولهجاتها كثيرة ولابد من الاطلاع على كامل اللهجات ودراستها.

وبخصوص دراسة البربرية ولهجاتها فقد جاءت فيما يبدو نتيجة للسياسة الفرنسية البربرية، حيث حاول المستعمر نشر فكرة أن القبائل أرقى من العرب، حيث العرب عنصر متوحش والقبائل عنصر نصف متحضر، و" من الدراسات المبكرة للبربرية ما قام به هانوتو الضابط الذي كان حاكما لزواوة، واهتم بلهجتها فأخرج كتابا بمعية زميله لوتورنو بعنوان جرجرة وعاداتها... ومن أعمال هانوتو كتاب في النحو التمشقي(لهجة الهقار)، كما أن بروسلار ألف قاموسا عن اللهجة البربرية لبجاية، وقد أصدرت نشرة المراسل الإفريقي التي كانت تصدر عن مدرسة الآداب في الجزائر مؤلفات كاملة عن اللهجات البربرية في واحة سيوة وغات والهقار والونشريس وبني سنوس وميزاب...إيميل ماسكري قد اهتم باللهجة الشاوية ونشر عنها، بينما موتيلانسكي نشر عن لهجات ميزاب" (سعد الله، أ، 1998، 32)، فكانت الجزائر في نظرهم عبارة على قبائل متناثرة ومتنافرة في اللهجات والعادات.

من الدراسات التي قام بها المستشرقون كذلك نجد " دراسة كانتينو(1956 _1899 Cantineauم) اللغة البربرية في الأقاليم الجنوبية التقسيم_ الدراسات_ الملاحظات، وفي دراسته قسم شعوب البربر في أقاليم الجنوب إلى قسمين: وهما البدو الرحل في الجنوب وسكان الشمال، وغلب على الدراسة الجانب الوصفي للتداخلات اللهجية، وإبراز التداخل الجغرافي في هذه اللهجات بدون أمثلة لغوية تقوي جانب البحث الذي يرتكز على اللهجات البربرية" (بوروبة، ح، 2015، 95).

ولعل هذه السطحية تدل على عدم موضوعية الحركة الاستشراقية الفرنسية، حيث غلب عليها الخضوع للسياسة الاستعمارية، وفي هذا الإطار يقر الدارس عبد الحميد بورايو أن " من يرجع

لهذه الأبحاث لا يجد شعبا متجانسا، إنما يجد خليطا من العناصر العرقية المختلفة التي تتنافر في أساليب حياتها وفي ثقافتها"(بورايو، ع، 2012، 11)، وهو الهدف المسطر من الإدارة الاستعمارية، حيث كان مسعاها زرع الفتنة بين أبناء الوطن الواحد وإيهام جهات معينة أنهم أرقي من غيرهم.

ب_ الشعر الشعبي:

يقول المؤرخ أبا القاسم سعد الله" قبل أن يدرس الجزائريون الشعر الشعبي اهتم به العلماء الفرنسيون منذ الاحتلال لأنه في نظرهم يعبر عن حقيقة الروح الجزائرية المقاومة لاحتلالهم، وقد حاربت السلطة الفرنسية المدّاحين أو القوالين وراقبت نشاطهم، لأنهم كانوا نقلة هذا الشعر ومروجيه، وكان معظمهم من الشعراء المرتجلين، وأخذ بعض الضباط المستعربين يحللون نصوص الشعر الشعبي الصوفي لغموضه، عندهم ولاحتوائه على رموز وتلميحات تاريخية وسياسية معادية للفرنسيين، والعناية بالشعر الشعبي في القرن الماضي كانت لأغراض سياسية في أغلب الأحوال، ثم أخذ المستشرقون يدرسون هذا الشعر باعتباره مصدرا اجتماعيا ولغويا واثنيا، ومن الذين برزوا في ذلك رينيه باصيه وتلميذاه الاسكندر جولي وجوزيف ديبارمي، ومن تلاميذه الجزائريين محمد بن شنب الذي نشر وترجم بعض شعر محمد بن إسماعيل عن حرب القرم وأشعارا أخرى لابن مسايب وغيره" (سعد الله، أ 1998، 308)، فقد وجد المستشرقون في الشعر الشعبي وسيلة للكشف عن المجتمع الجزائري خاصة أنه أكثر الأشكال تداولا بينهم.

وقد حاول المستشرقون الاهتمام بأكبر قدر من المناطق الجزائرية فقد « اهتم جولي بالشعر الشعبي في الجنوب كمناطق الحضنة والأغواط وتيارت وبسكرة وعين الصفراء، وكان قد حصل على منحة لجمع ودراسة هذا الشعر...وقد كان له حظ الترجمة والتصنيف والتعليق، وكذلك استعان لوسياني في ترجمته لنماذج الشعر الزواوي بالشيخ محمد السعيد بن زكري"(سعد الله، أ، 1998، 308)، فإدماج بعض أبناء الأهالي في مدرسة بوزريعة للمعلمين بالعاصمة ساهم في جعلهم وسيلة للتقرب من الأهالي وجمع المادة الشعرية، وبحلول القرن العشرين" ظهر أول مطبوع للشاعر الشعبي ذائع الصيت في الجزائر والمغرب الأقصى(أبو عثمان بن سعيد بن عبد الله المنداسي) يتضمن قصيدته المطولة العقيقة، وقام بترجمتها والتعليق عليها فور بيقي FAURE BIGANET سنة 1901" (بورايو، ع، 2012، 127). بالإضافة إلى ظهور الديوان المغرب في عرب إفريقية والمغرب عام 1904 لصونيك SONNEEK، وهي تراث مدون نحتسب الفضل لهؤلاء المستشرقين في جمعها وتدوينها.

وإن كان لعديد من المستشرقين بصمة مضيئة في نفض الغبار عن بعض التراث الشعري الجزائري، فإن غياب الموضوعية عند البعض دفعت التلميذ الذي درس على أيديهم عمار بوليفة وهو من أبناء

الجزائر أن يوجه نقده صراحة لأستاذه HANOTEAUفي كتابه الذي يحمل عنوان" الشعر الشعبي لقبائل جرجرة" فكان رأيه بأن صاحب الكتاب لم يكلف نفسه عناء التوصل إلى الشعراء المبدعين الحقيقين فقال: " لم يلتق هانوطو للأسف إلا بشعراء مناسبات، مثلما هو الحال بالنسبة للطبابلة والمداحين، ممن وجدوا أنفسهم شعراء بالقوة بسبب ظروفهم المعيشية" (بورايو، ع، 2012، 25).

وعودة لشعر المقاومات الشعبية نجد المستشرق الفرنسي" كور" قد اهتم بشعر الأمير عبد القادر بن محي الدين فترجم شعر شعرائه وخاصة ما قاله الشاعر "الطاهر بن حوا"، حيث كان رائدا فحلا في الشعر ومجاهدا في صفوف المجاهدين من أشعاره في الأمير قوله:

يا من درى شي من سلطاني مبارك ممزوج بالمسرات والرضا مبـــروك
بلي نحب واللّي تريد يجمع شملــك ويديرلك مولاك في المضيق سلوك
تنال كل الصاعبة يقوي نصـــــرك تقبض الخير والعقل مفكـــوك
تبلغ منازل تريدها يعظم ملكك بالعز والظفر لا نجا لمن عدوك
ويعم الأرض قبلة جرف وابل فضلك بالفخر والهناء والثنا لمن يضروك"

(الدور، أ، 2010/2009، 141)، حيث يشيد الشاعر هنا بمآثر الأمير وقوته، داعيا إياه لإحراز النصر والتغلب على الأعداء، مذكرا إياه بأن المولى عز وجل لجانبه والنصر جزاؤه مادامت غايته حماية الملك والوطن.

والمستشرق ألكسندر جولي المعروف بعنايته بجمع الشعر الشعبي، وعلى الخصوص من الجنوب الجزائري" ومنها قصيدة برواية باعفوين سليمان لشاعر مجهول وهي من نوع الغناء Le Réna ومطلع هذه القصيدة يقول :

املاح الناس اللّـي بيّ ساكنين السد الوعـــــر
طاعنين الأوطان القبلية ناس فاطنة زهو الخاطر
نفظت دماغي الزيديــة حبها على قلبي جـــــوار
في الضمير ناره مقدية بيّ فاطنة طير مزعفـر"

(الدور، أ، 2010/2009، 144)، وهي قصيدة تلخص قصة حب وعشق، وتدخل ضمن الشعر الوجداني.

من بين الدواوين الشعرية المطبوعة حاليا وقد أخرج عام 1902، ما جمعه المستشرق الفرنسي سونك **الديوان المغرب في أقوال عرب إفريقية والمغرب**، حيث يفتتح الديوان بقصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي ما اعتاد عليه الشعراء الشعبيون وهي للشاعر محمد حداد من

مدينة قسنطينة، وتليها قصائد في مدح الأولياء الصالحين، ثم قصائد في الحكم والمواعظ والإرشادات ترسيخا للقيم الأخلاقية فقد " استمدّت البيئة المغاربية قيمها بما قدمته من إنتاج شعري في هذا الغرض، وهذا مهّد لانتشار إنتاج غزير حول شعر الحكم والمواعظ والنصائح الداعية للأخلاق" (فيطس، عن د ت، 372_373)، وهذا النوع من الشعر الديني انتشر في تلك الفترة وشاع.

ويلي الشعر الديني ما يعاكسه حيث وردت خمس قصائد زجلية في الخمريات، لتليها مباشرة القصائد الغزلية لشعراء معروفين مثل ابن مسايب وابن تريكي وابن سهلة وابن يوسف، وهذا مطلع القصيدة رقم 31 للشيخ أبي مدين بن الشيخ محمد بن سهلة التلمساني يقول فيه:

كيف عملي وحيلتي* لمن نشكي بذا الامر* كيف عملي وحيلتي

يا ولعي صابغ الشفر

كيف عملي وحيلتي* لمن نشكي بليعتي* امشى رسلي المنيـــتي

ساعة جاني بشي خبر* منه تفوات دمعتي* افنيت وخاطري انقهر"

(سونك، 1902، 69)،

وتندرج هذه القصيدة ضمن الشعر الغزلي، حيث يحاكي فيه الشاعر مشاعر الشوق واللهفة للمحبوبة وهي بعيدة عنه.

كما ودرت في الديوان مرثية حيزية لابن قيطون المعروفة بعنوان عزوني يا ملاح تحت رقم41، بالإضافة للشعر السياسي لشعراء مجهولين، كما أدرج الشاعر في الديوان أهازيج الأفراح وأغاني العمل والمراثي، وعدد صفحات الديوان 234 ضمت الشعر الشعبي المغاربي في مختلف أغراضه.

وعن قيمة هذا العمل الاستشراقي يعلق الدارس عبد القادر فيطس بأن «الباحث لم يحقق في أصل بعض الشعراء وإنما أخذها من هواة في جمع الشعر الشعبي"(فيطس، ع، د ت، 375)، وهذه النقطة هي التي فتحت المجال لعدم موضوعية بعض الدراسات الاستشراقية وسطحيتها.

ج_ المغازي الشعبية:

عدت المغازي الشعبية من أبرز فنون الأدب الشعبي، حملت قيم التحرر من خلالها تبنيها قصص التاريخ الإسلامي وإعادة صياغتها، هروبا من مرارة الواقع الذي فرضه الاستعمار الغاشم، ورغبة في معانقة عالم البطولات واستحضارها طلبا للانعتاق، وقد ارتبط مصطلح المغازي أول مرة بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث يعرفها المستشرق" يوسف هوروفتس" فيقول:" لفظ المغازي يعني الغزوات، وهي الحروب التي اشترك فيها الرسول بالقتال، ولكن هذا الاسم تدرج في الزمن

واتسع معناه، وشمل تاريخ حياة النبي جميعها"(هوروفنتس، ي، 2001، 9.)، وهذا المفهوم ظل يدور فقط حول حياة الرسول(ص) بما تحوي من جهاد حربي وسلمي.

ثم توسع مفهومها لاحقا فحددها الدارس سعيد يقطين على أنها «نوع من القصص الحربي الديني، التي نجدها جميعا تنهض على أساس بنية مقومية مركزية هي الفتح، والتي تتمفصل إلى مجموعة من الثنائيات المتصارعة والمتضادة: مشرك_ مسلم، كافر_ مؤمن...." (يقطين، س، 2012، 235)، فقد كان الرواة يروون أمجاد المسلمين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده، وفتح الأمصار وتوسيع دائرة الإسلام في بقاع العالم.

والمعلوم في تاريخ الأدب العربي أنه لم يعرف شعرا ملحميا إلا حديثا، ولكن في الشعر الشعبي الأمر مختلف، فقد كان له السبق في هذا المجال، وابتدع الشعراء ما سمي المغازي الشعبية، فكانت هي الشعر البطولي الملحمي، ومنه عرفت المغازي الشعبية على أنها " شكل قصصي يؤديه الرواة المحترفون أداء دراميا من خلال إنشاد الشعر القصصي المصاحب بالعزف على الآلات الموسيقية التقليدية، ويتم ذلك في الأسواق وفي التجمعات العامة، في المناسبات الرسمية وشبه الرسمية، يطلق عليه رواته اسم غزوات وغزي، ومفردها غزوة، وهو يتناول وقائع الفتوحات الإسلامية، ويتغنى فيه الرواة ببطولات الفاتحين ويأتي في طليعة هؤلاء الإمام علي بن أبي طالب، بالنسبة لفتوحات الشام واليمن وعبد الله بن جعفر بالنسبة لفتوحات إفريقية، ثم المقداد بن الأسود الكندي والزبير بن العوام وخالد بن الوليد وعقبة بن نافع... ويعمم المصطلح فيطلق على قصص لا تتناول موضوع الفتوحات والمعارك، التي وقعت بين المسلمين وخصومهم"(بورايو، ع، 2012، 97)، فالواضح أن المغازي تستقي مادتها من التاريخ البطولي الإسلامي، وتتكئ على ما يخزنه من تاريخ مشرف للمسلمين في فترة ما."

وعن تاريخ ظهورها في الجزائر، فقد ظهرت المغازي كفن قصصي، وعرفت انتشارا واسعا في الجزائر في فترة الاحتلال الفرنسي، وقد تركز اهتمام العديد من المستشرقين عليها، فجمعوا نصوصا منها ودرسوها، ولعل أبرز الدراسات تلك التي قام بها المستشرق الفرنسي ج. ديسبرميه Desparmet.Jحيث يقر بأنها ظهرت« منذ القرن الرابع تقريبا، وبالتحديد منذ أن بدأ الفتح العربي ينسحب أمام العودة الهجومية للمسيحية، أنتجت أرض المسلمين أدبا يحمل اسم المغازي من نفس طبيعة الغزوات التي نتحدث عنها، وهو أدب مجهول بالنسبة لنا يختفي في التاريخ الأدبي تحت قناع اسم طموح ومستعار، يتمثل هدفه الوطني في إنقاذ ماء الوجه والتذكير بالانتصارات الماضية لنسيان الذل المعاش في الحاضر" (بورايو، ع، 2012، 97_98)

فالدارسون المستشرقون يرجعون سبب نظمها، إلى أنها تعتبر غطاء على الضعف والهوان، الذي أصاب الشعوب العربية نتيجة إضاعة مجدها اللامع، وما العودة إلى تذكرها إلا لجوء للماضي والعيش فيه بعيدا عن مرارة الحاضر.

ومن بين المستشرقين الذين عالجوا المغازي الشعبية ألفرد بال A.bel ورونيه باسيط Rene Basset وكذا جان ديسبرميه J.Desparmet« الذي نشر غزوة قصر الذهب ومعركة علي مع رسول الغول، وذلك بعد أن نقل القصتين إلى الفرنسية وقارن بين مخطوطتيهما وروايتهما الشفوية....ولقد انقلبت في مقالة ديسبرميه الروح الوطنية في المغازي والتغني بالماضي الملحمي كما صورته المخيلة الجمعية والإعلاء من شأن الهوية القومية إلى مشاعر حقد وعنصرية، وأصبح رأس الغول وفق تأويلاته يرمز إلى اليهود والفرنسيين، كما أن المدّاحين في نظره ليسوا متذوقين للجمال بل إنهم يقصدون إلى هدف عملي ووطني عندما يعطون شكلا شعريا للمشاعر الشخصية، يفكرون في بعث الروح الوطنية في قلوب إخوانهم في الدين ويثيرون عواطفهم الدينية واعتزازهم العنصري وكرههم للأجانب"(ينظر: بورايو، ع، 2012، 17_18)، وبالتاي فإن ما لمس من دراسات المسترقين فيما يخص المغازي الشعبية طبع غالبا بطابع ذاتي ونظرة استحقار وتقليل، من شأن هذا الشكل التعبيري والهدف الذي تسعى القرائح المبدعة لتحقيقه.

د_ القصص الشعبي:

من الباحثين الجامعيين الذين عملوا على دراسة القصص الشعبي« رونيه باسيط Rene Basset، الذي كتب عن بنت الخص، وحاول أن يردها في أصولها إلى التراث العربي، وقد انتهى إلى أنها تعود إلى هذه المجموعة من التقاليد التي حملها بنو هلال مع غيرها في أثناء هجرتهم إلى المغرب، حيث أصبحت تحمل طابعا محليا، بالإضافة إلى الدارس Alfred Bel الذي نشر قصة الجازية وعلق عليها، حيث تقدم بملاحظات حول الأصل العربي للقصة وأسباب رواجها بين البدو في الجزائر، وتطويرها لبعض جوانب حياة وطبائع ومطامع العرب الرحل، والتي انتقلت لأرض إفريقية" (ينظر: بورايو، ع، 2012، 17).

ولكننا نتساءل هل كان المجتمع الجزائري قبل مجيء بنو هلال صائما عن الحكي والقص والتفاعل، وهل ما نشره هؤلاء المستشرقون مدعوم بحجج وبراهين؟ وفي هذا الإطار رد الدارس عبد الحميد بورايو بقوله:" ما نجده عند رونيه باسيط وألفرد بال من اهتمام بأصول القصص التي عالجاها لا يرقى إلى حد الدقة والضبط، الذين عرفت بهما دراسات المدرسة الفنلندية في هذا المضمار، كما أن تشكيك ألفرد بال في القيمة التاريخية لقصة الجازية ينقصه كثير من الإقناع،

وما رآه من أنها انحلالا أصاب أحداث تاريخية غير مدعوم بإثبات، وجان ديسبرميه أحكامه العامة وتعصبه السياسي قد أبعداه عن الدراسة الموضوعية" (ينظر: بورايو، ع، 2012، 18_19)، فخضوع عديد الأسماء الاستشراقية لدوافع ذاتية، جعل الدراسات تحيد عن أهدافها الحقيقية لتصب النتائج المتوصل إليها فيما يريد الاستعماريون رؤيته.

والسيرة الهلالية كان لها نصيب كبير في الدراسة وخاصة شخصية الجازية التي ذكرناها سابقا، وفي المجلة الإفريقية رصدت" دراسة للمستشرف فيسير، الذي عمل على ترجمة قصة الجازية وديباب تحت عنوان أولاد رشاش" (ينظر: الدور، أ، 2009/ 2010، 109)، وهذه الدراسة تعد مصدرا مهما لجانب مهم من جوانب السيرة الهلالية.

وخلاصة القول إن ما عكف المستشرقون على جمعه ودراسته من القصص الشعبي فيه جانب إيجابي يتمثل في حفظ هذا التراث وإعادة بعثه وإحيائه، وجانب سلبي هو حبس نتائج هذه الدراسات في دائرة الذاتية التي حرمت الدراسات الشعبية من التطور ومواكبة نظيراتها في العالم.

هـ_ المعتقدات والطقوس حول الأولياء الصالحين:

حاز الأولياء الصالحون على اهتمام الباحثين، حيث كان للطرق الصوفية مساحة اهتمام أكبر من غيرها من مظاهر الثقافة الشعبية، ذلك لانتشارها الكبير بين أوساط الشعب، ومنه جنّدت أقلام الباحثين العسكريين خاصة للكشف عنها من ناحية التنظيم والممارسة والمعتقد والأعضاء" فنشر الضابط أ، دونوفو E. deneveux كتابا عن أعضاء الطريقة مسجلا معلوماته وملاحظاته عنهم، كما ألف ك، ترومیلیه C. Trumulet كتابين عن الأولياء الصالحين بالقطر الجزائري وأضرحتهم، والمعتقدات المتصلة بهم، كما سجل قصصا متعلقة بكراماتهم، ونشرت المجلة الإفريقية بحوثا حولهم للمستشرق ألكسندر جولي Alexandre Joly، كما أخرج رنيه باسيط كتابا عن سيدي أحمد بن يوسف بما في ذلك من قصص عن كراماته ومناقبه" (ينظر: بورايو، ع، 2012، 9_10)، وتركيز الباحثين على الطرق الصوفية ليس أمرا عبثيا وإنما لأن فيه جانب معتقدات الجزائريين، والاستعمار يريد أن يغرق الشعب في المعتقدات البالية والخاطئة (إقامة الطقوس للأولياء وتعظيمهم) وهو ما حاربته جمعية المسلمين الجزائريين وعملت على القضاء عليه.

أما عن التراث المادي فالمستشرقون لم يولوه اهتماما كبيرا، إلا في فترات صعب عليهم استكمال دراساتهم في مجال التراث اللامادي فـ" بعد الحرب العالمية الأولى عرف المجتمع الجزائري تغيرات جديدة وتبلورت الفكرة الوطنية وازداد عدد المهاجرين إلى أوربا وظهرت جمعية المسلمين الجزائريين...لاقت السياسة الاستعمارية مصاعب جمة في هذه الفترة، في ظل هذه الظروف لجأ

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

البحث العلمي الاستعماري إلى الماضي وإلى الثقافة الشعبية المادية، فعالج المساكن الأهلية والصناعات التقليدية والفنون الأهلية" (ينظر: بورايو، ع، 2012، 13)، الثقافة المادية في عهد الاستعمار الفرنسي لم تكن في مستوى التراث اللامادي من ناحية النتائج التي يريد الاستعمار الوصول لها.

خاتمة: ما يمكن قوله إجمالا:

_ الاستشراق الفرنسي اهتم بالثقافة الشعبية المادية وخاصة الأشكال التعبيرية في الأدب الشعبي أو ما يمكن أن نسميه الأداء، وكذا بجانب المعتقدات والطقوس التي تدور حول الولي الصالح، وهو ما يمكن أن نسميه الممارسات، فيما أهمل جانب المهارات في هذا التراث وكل ذلك خدمة لحاجة المستعمر.

_ السياسة الاستعمارية كانت لها بصمة في جميع اتجاهات الثقافة الشعبية، وهذه السياسة انعكست على وجهات نظر الباحثين.

_ الاستشراق في جانب إيجابي عمل على تسجيل وتوثيق جزء كبير من الأدب الشعبي الجزائري.

_ من خلال تتبع دراسات المستشرقين في مجال الثقافة الشعبية نظل نطرح التساؤل أين هي مكانة الموضوعية والتدقيق العلمي والحياد الموضوعي في الدراسات؟، لأن أغلب الدراسات مطبوعة بالذاتية والانحياز.

****

المصادروالمراجع:

الكتب العربية والمترجمة:

1_ بن إبراهيم، الطيب، (2004)، الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر، د ط، الجزائر، دار المنابع.
2_بورايو، عبد الحميد(2012)، الأدب الشعبي الجزائري، دراسة لأشكال الأداء في الفنون التعبيرية الشعبية في الجزائر، د ط، الجزائر، دار القصبة للنشر .
3_ الزيادي، محمد فتح الله(1998)، الاستشراق أهدافه ووسائله، دراسة تطبيقية حول منهج الغربيين في دراسة ابن خلدون، ط1، بيروت، دار قتيبة.
4_ سعد الله، أبو القاسم سعد الله، (1998)، التاريخ الثقافي للجزائر، 1830_1954، ط1، ج 8، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
5_ سونك، (1902)، الديوان المغرب في أقوال عرب إفريقية والمغرب، د ط، باريس، مطبعة اقوست بوردان.
6_ شاكر مصطفى سليم(1991)، قاموس الأنثروبولوجيا، د ط، الكويت .
7_ علواني، صالح، الاستشراق مركزية الذات عند المستشرقين وتمرد البعض عنها، رجاء غارودي نموذجا من خلال كتابه Promesses de l'Islam، 2014))، سلسلة محاضرات الملتقى الدولي محمد بن شنب والاستشراق المنظم بالمدية è إلى 10 ديسمبر 2014، المدية، الجزائر، منشورات مديرية الثقافة.
8 _ مجمع اللغة العربية، (د ت)، المعجم الوسيط، د ط، القاهرة.
9_ النهان، محمد فاروق، (2012)، الاستشراق، تعريفه، مدارسه آثاره، د ط، المغرب، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو.
10_ النملة، علي إبراهيم (1993)، مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين، استقراء للمواقف، د ط، الرياض، السعودية مكتبة الملك فهد.
11_ هوروفنتس، يوسف، (2001)، المغازي الأولى ومؤلفوها، تر: حسين نصار، ط2، القاهرة، مكتبة الخانجي.
12_ وزان، عدنان محمد، (د ت)، الاستشراق والمستشرقون، وجهة نظر، د ط، مكة، مطبعة رابطة العالم الإسلامي .
13_ يقطين، سعيد، (2012)، السرد العربي، مفاهيم وتجليات، ط1، الرباط، المغرب، منشورات الاختلاف.

المجلات والدوريات:

14_ بنيرد، حاج، (2020)، جهود المستشرقين الفرنسيين في دراسة اللهجات الجزائرية، مقاربة اثنوجرافية، مجلة دراسات استشراقية، (ع22، ربيع).
15_ بوروبة، حميد(2015)، : الدراسات اللهجية في المجلة الإفريقية، مجلة أبوليوس، (مج2، ع1، جامعة سوق أهراس).
16_ فارح، مجدي(1012)، الثقافة الشعبية العربية في أعمال المستشرقين بين التزوير والتنوير، مجلة حوليات التراث، (ع12، جامعة مستغانم).
17_ فيطس، عبد القادر، (د ت)، جهود المستشرق الفرنسي سونك في جمع وتدوين الشعر الشعبي المغاربي، (مجلة الحقيقة، ع 29)، جامعة أدرار.

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

القواميس الأجنبية:

18_ Grand Larousse Encyclopédique, VII

الرسائل:

19_ الدور، أمحمد شايب (2010/2009)، الاستشراق الفرنسي والتراث الشعبي في الجزائر، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران،